معجزةَ كلّ ِ نبيّ ٍ فيما كان أَغلبَ على الذين بُعِث فيهم وفيما كانوا يتباهَوْنَ به وكانت عوامّ ُهم تعظّ ِم به خواصّ َهم . قالوا : إنه لمّ َا كان السحرُ الغالبَ على قومِ فرعونَ ولم يكنْ قد استحكم في زمانٍ استحكامَه في زمانه جعل تعالى مُعجزةَ موسى عليه السلام في إبطالِه وتَوهينِه . ولمّا كان الغالبَ على زمانِ عيسى عليه السّلام الطبّ ُ جعل ا تعالى مُعجزتَه في إبراء الأكْمهِ والأبرصِ وإِحياءِ الموتى . ولما انتهوا إلى ذكرِ نبيّنا محمّدٍ وذِكْرِ ما كان الغالبَ على زمانه لم يذكروا إلا البلاغةَ والبيانَ والتّصرفَ في ضروب النظم .

وقد ذكرتُ في الذي تقدمَ عينَ ما ذكرتهُ هاهنا مما يدلّ ُ على سقوطِ هذا القول . وما دعاني إلى إعادةِ ذكرِه إلا أنه ليس تهالكُ الناسِ في حديث اللفظ والمحاماةُ على الاعتقاد الذي اعتقدوه فيه وضَنّ ُ أنفسهم به إلى حدّ ٍ . فأحببتُ لذلك أن لا أدَع شيئاً ممّا يجوزُ أن يتعلّ َق به متعلّ ِقٌ ويلجأَ إليه لاجىء ويقعَ منه في نَفْسِ سامعٍ شكّ ُ إلا استقصَيْتُ في الكَشْفِ عن بطلانه .

وهاهنا أمرٌ عجيبٌ وهو أنَه معلومٌ لكلّ ِ من نظر أن الألفاظ من حَيْثُ هي ألفاظٌ وكَلِمٌ ونطقُ لسانٍ لا تختصّ ُ بواحدٍ دونَ آخر وأنها إنما تختصّ ُ إذا تُوُخّ ِيَ فيها النظمُ . وإِذا كان كذلك كان مَنْ رفع النظمَ منَ البين وجَعَلَ الإِعجازَ بجُملته في سهولةِ الحروفِ وجَريانها جاعلاً له فيما لا يصحّ ُ إضافتهُ إلى ا تعالى وكَفَى بهذا دليلاً على عَدمِ التوفيق وشدّ َةِ الضلال عن الطريق .

فصل فيه إجمال وعظة .

قد بلغنا في مداواة الناسِ مِنْ دائهم وعلاجِ الفسادِ الذي عرضَ في آرائِهم كلّ َ مبلغَ وانتهينا إلى كلّ ِ غاية وأخذنا بهم عَنِ المجاهل التي كانوا يتعسّ َفون فيها إلى السّ َنَن اللاّحِب ونقلْنَاهم عَنِ الآجنِ المطروقِ إلى النّ َميرِ الذي يَشْفي غليلَ الشارِب . ولم